المعارك الفاصلة في العصور الوسطى

الفتح الاسلامي ٦٤١م :

يتضـــح للقارئ أو الباحث لتاريخ مصـــر منذ الوهلة الأولى أن مصر قد تعرضت طوال تاريخها لكثير من الغزوات لأســـباب عدة، إلا أن مصر لم تستسلم أبدا لمستعمر أو تنزل على أمر دخيل، ولكن رحب المصريون بالحكم العربي الإسلامي ورأوا فيه خلاصا لهم من بطش الروم، بل اندمج المصريون مع العرب الفاتحين وأقبلوا على دخول الإسلام باقتناع تام .

وبمـــرور الزمن دخلت في القومية المصريـــة خصائص جديدة، تتمثل في دخول معظم المصريين في الإسلام، واندماجهم في الثقافة العربية، فأصبحت شخصية مصر بعناصرها الأساسية التي ورثتها عبر القرون، وتأثرت فيها بالشعوب التي اختلطت بها، تضيف إليها فكرا جديدا وهو الإسلام، وثقافة عربية، ولغة جديدة هي العربية.

إذن تغيرت الشخصية المصرية وأصبحت شخصية مصرية عربية إسلامية، واندمجت بسببها في الدولة العربية الإسلامية، الأموية أو العباسية، لذلك تغيرت نظرة المصريين إلى العرب، ورأوا فيهم أخوة يعيشون معهم على قدم المساواة في الدولة الإسلامية الكبرى وفي عالم الإسلام الكبير، يشتركون معهم في المحافظة على الإسلام وفكره وثقافته ولغته العربية، وبمرور الزمن أصبحت مصر قبلة لطلاب العلم يفدون إليها من مختلف بلاد الإسلام .[٨]

كل هذا وأكثر، جعل من معارك الفتح الإسلامي لمصر معارك فاصلة في تاريخ الأمة المصرية الباسلة وأما عن أطرافها، فهم العرب المسلمين القادمين من الجزيرة العربية بعد أن أتموا فتح الشام، ضد الروم البيزنطيين المحتلين لمصر منذ حوالي سبعمائة عام، وكان الطرف الذي سينضم إليه المصريين واضحا منذ الوهلة الأولى، وهو جيش المسلمين لأسباب كثيرة متعلقة بالاضطهاد الديني والمذهبي من البيزنطيين للمصريين، وصلات القرابة والرحم بين قبائل شبه الجزيرة العربية والمصريين .

كان قائد هذا الفتح العظيم الذي عرفه العرب بفتح الفردوس، هو عمرو بن العاص أحد أشهر الصحابة، وواحد من دُهاة العرب المعروفين في الحرب، وكان الفتح في زمن الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويبدو أن الخليفة عمر كان لديه بعض الاعتراضات على هذا الفتح لانشغال الجيوش الإسلامية

٨ - (د. عصام الدين عبد الرءوف الفقي - مصر الإسلامية - ص٣٢)

بالفتوحات شـــرقا ومعاركهم المتلاحقة ضد الفرس والروم، فكان عمر يأبى أن يفتح جبهة جديدة للحرب يدخل فيها المسلمون وهم غير مؤهلين لها، إلا أن عمرو بن العاص ظل يلح على الخليفة عمر، واســـتغل فرصة وجود الخليفة عمر في الشام وكرر عرضه عليه .

عقد مؤتمر في الجابية تدارس فيه القادة المسلمون مسألة فتح مصر، وفي نهاية الاجتماع اتفقوا على وجوب الفتح لتأمين فتوح الشام، كما أن لمصر ثقلها الذي يدعم الجهود البيزنطية ضد المسلمين .

أحســـن المســـلمون الاســـتعداد، واتُفق على أن يكون عمرو بن العـــاص هو قائد جيش الفتح، وأمـــده الخليفة عمر بن الخطاب بجيش قوامه بين الثلاثة آلاف والأربعة آلاف مقاتل، واتجه مباشرة عمرو بالجيش للفتح، ويبدو أنه دخل العريش دون مقاومة تذكر وســـط ترحيب من أهلها، واستكمل الزحف حتى وصل إلى مدينة الفرما وهي المعروفة الآن ببورســـعيد وحاصرها شـــهرا ثم دخلها بمعاونة القبط المصريين .

واصل عمرو الســـير بجيشه حتى وصل بلبيس بالشرقية وواجه بها أرطبون القائد البيزنطي الشهير، إلا أن مقاومة البيزنطيين لم تدم أكثر من شـــهر بها، ودخلها عمرو منتصرا فاتحا كسابقتها من المدن المصرية، ثم استولى على أم دنين، وواصل المسير إلى حصن بابليون القوي والذي تحصّنت بداخله الفرق العسكرية البيزنطية .

حاصر المسلمون حصن بابليون، وكانت إمدادات جديدة أرسلها الخليفة عمر بن الخطاب قد وصلت إلى مصر بقيادة أربعة من خير قادة المسلمين وأشهرهم، وهم : الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، والمقداد بن عمرو التميمي، ومسلمة بن مخلد الأنصاري؛ ويبدو أن قائد البيزنطيين ويدعى تيودور قرر الخروج من الحصن لقتال المسلمين، إلا أن الهزيمة قد لحقت به وعادت فلول جنده إلى الحصن مرة أخرى .

لم يكن الاستيلاء على الحصن أمرا يسيرا أبدا، ودام حصار المسلمين للحصن أكثر من سبعة أشهر، إلا أن المسلمين استطاعوا اقتحام الحصن بفضل شجاعة واقدام الزبير بن العوام، وقد أعطى عمرو بن العاص الأمان إلى الجند الروم الذين سلموه الحصن على حياتهم، ووافق على جلاء الجند الروم عن الحصن حاملين معهم أقواتهم، وأما ما تبقى في الحصن من أسلحة وذخائر فهي للعرب .

بعد إتمام فتح حصن بابليون وما حوله، زحف المسلمون إلى الاسكندرية وكانت عاصمة مصر منذ عصر الإسكندر الأكبر، وهي متصلة بالقسطنطينية عاصمة البيزنطيين من خلال البحر المتوسط، إلا أن القبط المصريين سخّروا كل الإمكانيات المتاحة لديهم للمسلمين الفاتحين، وحقق المسلمون عدة انتصارات على الروم قرب الاسكندرية وداخلها، وزاد حصار الإسكندرية على تسعة أشهر حتى خضعت تماما للمسلمين .

بعد إتمام فتح الإسكندرية، أرسل عمرو بن العاص حملة بقيادة خارجة بن حذافة نجحت في فتح الصعيد وإخراج البيزنطيين منه، ويبدو أن الصعيد تم فتحه دون مقاومة تذكر .

على أي حال، أتم عمرو بن العاص فتح مصر سنة ٢١هـ / ٦٤١م، في غضون عامين وبضعة أشهر والذي اعتبره كثير من المؤرِّخين زمنا قياسيا لفتحها، وأصبحت مصر منذ حينها هي قلب العالم الإسلامي النابض والمدافع عنه على مر العصور وقبلته العلمية التي يفد إليها طلاب العلم المسلمين من جُلِّ أنحاء العالم الإسلامي .

ذات الصواري ٦٥٤م :

تُعتبر معركة ذات الصواري البحرية واحدة من أهم المعارك في تاريخ الأمة المصرية، بل والأمة الإسلامية كلها، ففي الوقت الذي كان فيه للمصريين باعا طويلا في معارك البحر منذ عصر الفراعنة، إلا أنها المرة الأولى التي يخوض فيها المصريين حربا بحرية في ظل الحكم الإسلامي، وتعتبر كذلك هذه المعركة هي المعركة البحرية الأولى التي يخوضها أسطولا إسلاميا في البحر المتوسط .

كانت المعركة بين الأسطول الإسلامي والأسطول البيزنطي، وقد وقعت في عصر الخليفة الراشد عثمان بن عفان، بعد أن كان عمر بن الخطاب يخشى على المسلمين ركوب البحر للغزو، خاصةً

وأن عمرو بن العاص كان قد وصف البحرللخليفة عمر قائلا «يا أمير المؤمنين .. إني رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء، إن ركد أحزن القلوب، وإن ثار أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق» .[٩]

لم يكن عثمان بن عفان أقل حذرا من عمر في ركوب البحر، ولكنه كان يرى التروي والصبر حتى يعد المسلمون لذلك جيدا، وكان لقبط مصر الدور الأكبر في إعداد هذا الأسطول وهم الذين قد برعوا في بناء السفن عبر العصور، وتعاون الأسطولان المصري والشامي في انتزاع السيادة على كامل البحر المتوسط ليد المسلمين.

أما عن أسباب معركة ذات الصواري فهي متداخلة، ولكن يبدو أن السبب المباشر لمعركة ذات الصواري هو تحرك الامبراطور قنسطانز الثاني للهجوم على السواحل الإسلامية انتقاما لقيام عبد الله بن سعد بن أبي السرح والي مصر حينها بغزو إفريقية، فخرج قنسطانز في أسطول كبير يُقدر بخمسمائة مركب أو يزيد، فخرج أهل الشام بقيادة معاوية وأهل مصر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح تحسبا لهذا الهجوم، والتقى الأسطول الإسلامي بقيادة عبدالله بن سعد بن أبي السرح في مائتي مركب مع الأسطول البيزنطي الذي بلغ ثلاثة أضعاف الأسطول

٩ - (الكندي - ولاة مصر - ص٥٩)

الإسلامي، لكن الأسطول الإسلامي لقن الأسطول البيزنطي درسا قاسيا وأحرز عليه انتصارا عظيما كان إيذانا بانتهاء السيادة البيزنطية على البحر المتوسط وتحولها لصالح المسلمين . [١٠]

عُرفت المعركة بذات الصواري، نسبة إلى كثرة سواري السفن التي استخدمت فيها، وتطورت كلمة سواري وهي جمع ساري السفينة، وأصبحت ذات الصواري .

أما عن المعركة، فيبدو أن القتال في بدايته كان تراشقا بالنبال والنشاب، فلما نفدت السهام اقتتل الفريقان بالحجارة واتخذ العرب خطة حربية قوية، فربطوا سفنهم بعضها ببعض بالسلاسل، مما جعل من المتعذر والصعب على الروم اختراق صفوفهم، كذلك استخدم العرب في نفس الوقت خطاطيف طويلة، كانوا يقذفونها على سفن العدو، فيصيبون بها صواريهم، ثم يجرونها إلى جوار سفنهم، فأصبحت المعركة وكأنها معركة برية.

اختلف المؤرِّخون حول مكان المعركة، فيرى البعض إنها باتجاه المغرب، وهناك من يرى أن المعركة دارت عند شواطئ كيليكيا قرب سواحل الأناضول، الذي تنمو فيه بكثرة الغابات، التي يستخرج منها الخشب الصالح لبناء السفن وصواريها . [١١]

---

١٠ - (أ.د. محمد بركات البيلي - تاريخ الدولة العربية الإسلامية - ص١٧٩)

١١ - (د. عصام الدين عبد الرءوف الفقي - مصر الاسلامية - ص٥٣)

على أي حال، يتضح مما ذكرنا أن معركة ذات الصواري كان لها أثاراً كبيرةً على الأمة الإسلامية والتي بدورها تتضمن الأمة المصرية كإحدى العناصر المكونة لها، وكيف كان للمصريين دورا عظيما في التجهيز لهذه المعركة والاشتراك في تحقيق هذا النصر العظيم للأمة بأسرها .

حطين ١١٨٧م :

معركة حطين هي واحدة من أهم المعارك في تاريخ مصر والعالم الاسلامي، وهي إحدى الحلقات المؤثرة في سلسلة الصراع الإسلامي الصليبي الممتد عبر العصور، والحملات الصليبية هي حملات استعمارية جاءت من أوروبا إلى العالم الإسلامي تتستر خلف الدين المسيحي، ونجحت في استغلال حالة الضعف والانقسام التي كان يعاني منها العالم الإسلامي وأسست لنفسها مجموعة من الإمارات الصليبية على أراضي المسلمين في الشرق وكان من بينها مملكة بيت المقدس والتي وقعت أسيرة في يد الصليبيين لفترة زادت على التسعين عاما حتى استطاع السلطان الناصر صلاح الدين استردادها من أيديهم .

كان السلطان الناصر صلاح الدين وهو كردي الأصل، أحد القادة في جيش نور الدين محمود وواحدا من أمراء السلاجقة في الشام، وقد استطاع صلاح الدين إسقاط الدولة الفاطمية

الشيعية التي كانت تحكم مصر حينها وأسس دولته على أراضيها، واستطاع أن يوحد المثلث الإسلامي الممثل في مصر والعراق والشام ليتفرغ بعد ذلك لاسترداد الأراضي التي نهبها الصليبيون في الشرق الإسلامي، وعلى رأسها القدس الشريف .

أما عن السبب المباشر لمعركة حطين، فقد كان صلاح الدين ملتزما بالهدنة التي عقدها مع الصليبيين في الشرق مستغلا إياها في الإعداد والتجهيز لمعركته الفاصلة معهم، إلا أن رينو دي شاتيو (أرناط) وهو أمير حصن الكرك الصليبي الواقع في حدود الأردن الحالية نقض هذه الهدنة وانقض على قافلة كبيرة للمسلمين يقال أنه كان بها إحدى عائلات البيت الأيوبي أو كان بها أخت صلاح الدين، وقيل أمه، واستولى أرناط على القافلة وأسر رجالها في حصن الكرك وأساء معاملتهم .

أرسل صلاح الدين إلى أرناط مهددا إياه وطالبا منه، أن يرد الأسرى والغنائم، ولكن أرناط رفض طلب صلاح الدين، ورد عليه ردا استفزازيا، اذ أرسل يقول له « فليأت محمدكم ليخلصهم »، ومع ذلك فقد تمالك صلاح الدين نفسه وظل محترما لشروط الهدنة مع الصليبيين، وأرسل إلى أرناط يقول له « أين العهود والمواثيق، رد ما أخذت»، وأرسل صلاح الدين كذلك إلى جاي دي لوزينان، ملك بيت المقدس، طالبا منه أن يرغم أرناط على رد الأسرى والبضائع، غير أن جاي لم يفلح في هذه المهمة . [١٢]

١٢ - (د. ليلى عبد الجواد إسماعيل - تاريخ الأيوبيين والمماليك في مصر والشام - ص٦٠)

لم يعد أمام صلاح الدين مفرا من إعلان الحرب، وأخذ في تعبئة جيشه والاستعداد للمعركة، وتحرك صلاح الدين تسبقه فرق الاستطلاع، وقام صلاح الدين بإفساد آبار المياه في طبرية حتى لاينتفع بها الصليبيين، وفي الجهة الأخرى فرض أرناط رأيه على أمراء الصليبيين بضرورة مفاجأة المسلمين عند طبرية، وكانت حماقة أرناط هذه كافية لجر الصليبيين إلى التهلكة خاصة في حر الصيف الشديد بما يحمله الجنود الصليبيين من متاع وسلاح وزي حديدي، وسيقطعون بكل ذلك مسافة طويلة في الصحراء حتى يصلوا إلى جيش صلاح الدين .

بالفعل وصل الصليبيين منهكين إلى طبرية، وأسرعوا إلى الآبار لري عطشهم، إلا أنهم وجدوا أن صلاح الدين كان قد سبقهم إليها وأفسدها، وتحقق لصلاح الدين ما أراد حيث أجبر الصليبيين على ترك مواقعهم عند صفورية والمجئ إلى طبرية منهكين .

أشعل المسلمون النار في الحشائش الموجودة أسفل هضبة حطين، وكان الهواء على الصليبيين، فحمل لهم حر النار والدخان بالإضافة إلى حر الشمس، وأحاط بهم المسلمون من جميع الجهات وأعملوا فيهم القتل، ومن نجا منهم كان مصيره الأسر، فقال ابن الأثير عن ذلك اليوم « وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لا يظن هناك قتلى، فإذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى»، وكان من بين الأسرى جاي لوزينان ملك بيت المقدس، وأرناط أمير حصن الكرك، وجيرار مقدم الداوية أو ما يعرف بفرسان المعبد .

أطلق صلاح الدين سراح الأسرى إلا أرناط الذي قتله صلاح الدين بيده جزاء له لما قام به في حق قوافل المسلمين .

على أي حال تعتبر معركة حطين معركة فاصلة في تاريخ الحروب الصليبية، حيث مهدت الطريق لاسترداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين، وكانت سببا في إعادة توحيد العالم الاسلامي خلف صلاح الدين لاسترداد الأراضي الاسلامية المغتصبة من الصليبيين، كما وجهت أنظار الصليبيين إلى مصر والتي رأوا ضرورة الاستيلاء عليها إذا ما أرادوا تكوين مملكتهم في القدس، ولم تكن هي المعركة الوحيدة أو الأخيرة التي خاضها صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين، لكنها تعتبر أهمهم وأشهرهم وأكثرهم تأثيرا في تاريخ الحملات الصليبية الاستعمارية على بلاد المسلمين .

المنصورة ١٢٤٩م :

تُعتبر معركة المنصورة واحدة من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ الحروب الصليبية، وكانت إحدى المعارك التي تصدى فيها المصريين للحملة الصليبية السابعة، بعد أن حولت الحملات الصليبية وجهتها إلى مصر حيث تأكد الصليبيون أنهم لن تستتب لهم الأوضاع في القدس إلا بعد القضاء على مصر تماما .

تزعّم لويس التاسع ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة على مصر مدعوما من الباباوية والجنود الأوروبيون وكانت

هذه الحملة على مصر إبان حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب الأيوبي لمصـــر، ومن الجدير بالذكر أن الملك الصالح كان على علاقات طيبة بالإمبراطور فريدريك الثاني الألماني والذي أرسل إلى الملك الصالح الموجود حينها بالشام ليخبره بأمر هذه الحملة الصليبية التي أعدتها الباباوية وتقرر أن يخرج على رأســـها ملك فرنســـا لويس التاسع بقصد الاستيلاء على مصر .

بعد أن علم الملك الصالح نجم الدين أيوب بتطورات الموقف في أوروبا وقرب وصول الحملة الصليبية إلى مصر، اتخذ من الترتيبات العســـكرية ما يضمن به عدم ســـقوط دمياط مقصد الصليبيين في أيديهم حيث كان قد أمر قائده فخر الدين يوســـف بن شـــيخ الشيوخ بالإســـراع والذهاب إلى دمياط وشحنها بالجنود والسلاح لتكون مســـتعدة لمواجهة الفرنســـيين، كم أمر قبائل بني كنانة بالنـــزول قرب هذا الموضع لنفس الغرض .

يبـــدو أن الملك الصالح كان مريضا وهو بالشـــام، فقد حُمِلَ على ظهر محفة، ونزل على مقربة من دمياط، وبدأ يضع الترتيبات اللازمة، ويتخذ كافة الاســـتعدادات لمواجهة حملة لويس التاسع وذلـــك في المحرم من ٦٤٧هـــ / أبريل ١٢٤٩م، ووقفت شـــجر الدر إلى جوار زوجها وهو يعد العدة للقاء لويس التاســـع ملك فرنسا، ويتخذ كافة الاستعدادات لهذا اللقاء . [١٣]

١٣ - (د. ليلى عبد الجواد إسماعيل - تاريخ الأيوبيين والمماليك في مصر والشام - ص١٦٣)

وصلت المراكب الفرنسية إلى دمياط ونزلوا إلى البر الذي عساكر المسلمين فيه وهو البر الغربي، وفي نفس الليلة رحل الأمير فخر الدين يوسف بمن معه من عساكر من البر الغربي إلى البر الشرقي واتجه صوب اشموم، وعندما رأى أهل دمياط رحيل الجيش صحبة الأمير فخر الدين تركوا المدينة وخرجوا في نفس الليلة هائمين على وجههم بمن معهم من الأطفال والنساء وساروا إلى القاهرة، ولم يبق بالمدينة أحد البتة، وصارت دمياط فارغة من الناس جملة، كما أن بني كنانة الذين اعتمد على شجاعتهم الملك الصالح نجم الدين أيوب تركوا دمياط مثلهم في ذلك مثل الجيش والحامية وأهل المدينة . [١٤]

على أي حال، سقطت دمياط في يد الصليبيين دون قتال، ودخلوا المدينة وقاموا فيها بأعمال السلب والنهب، أما عن الملك الصالح فقد قرر الرحيل إلى المنصورة واتخاذها خط دفاع أول ضد الصليبيين، وقرر معاقبة الأمير فخر الدين وأمراء بني كنانة على انسحابهم من أمام الصليبيين في دمياط .

انتظر لويس التاسع في دمياط خمسة أشهر كاملة دون أن يفكر أن يتحرك إلى غيرها من المدن المصرية، ويبدو أنه كان منتظرا للإمدادات والتي قدمت بالفعل من أوروبا، وفي ظل كل هذه الأحداث والظروف العصيبة التي تمر بها البلاد، لم يلبث الملك الصالح نجم الدين أيوب أن تُوفِّى بالمنصورة، وهنا اتفقت شجر الدر

١٤ - (د. حامد زيان غانم - الحروب الصليبية - ص١٩١)

زوج الملـــك الصالح مع كبار قـــادة الجيش على أن يتكتموا خبر الوفاة بينهم حتى لا يتســـرب إلى الجند اليأس والضعف، وأرسلوا سرا لاستقدام توران شاه بن الملك الصالح ليتولى السلطنة خلفا لأبيه .

أســـرع توران شـــاه بالقدوم إلى مصر، إلا أنه وصل بعد أن نجح لويس التاســـع في اقتحام المنصورة، بل وقتل مقدم العسكر الأمير فخر الدين يوســـف، وتدهـــورت الأحوال وســـاءت الظروف، وبات ســـقوط القاهرة نفسها في يد الصليبيين أمرا وشيكا، ولولا حسن تصرف توران شاه في هذه الأحداث لكانت الحملة الصليبية تمكنت من مصر كلها .

قرر توران شـــاه اســـتقدام فرقة المماليك مـــن قلعة الروضة واشـــراكهم في قتال الصليبيين، على أن يقوم المماليك بمباغتة الصليبيين بالهجوم عليهم، في حين يطبق عليهم توران شـــاه ومن معه من الجنود، ويبدو أن هؤلاء المماليك كانوا في اشتياق للقتال وخوض المعارك، ونزلوا على الصليبيين كالصواعق وأثبتوا مهارة وكفاءة عالية .

انقلب انتصار الصليبيين إلى هزيمة ساحقة لهم، وأصبحوا بين قتيل وأســـير، حتى أن الملك لويس التاســـع ملك فرنسا وقائد الحملة وقع بنفســـه أســـيرا في يد المصريـــين، وتم اقتياده مكبلا بالقيود إلى دار فخر الديـــن إبراهيم بن لقمان .

وقد وضعت شروط قاسية على الملك لويس التاسع ليفتدي نفسه ومنها أن يفتدى بثمانمائة ألف دينار من الذهب يدفع نصفها حالا ونصفها بعد عودته إلى بلاده، وأن يحتفظ توران شاه بالأسرى الصليبيين إلى أن تُدفع بقية الفدية، وأن يتم إطلاق سراح الأسرى المسلمين وتسليم دمياط للمسلمين، وهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات، وهكذ أعلنت هذه الحملة الصليبية على مصر فشلها .

عين جالوت ١٢٦٠م :

عين جالوت ليست معركة فاصلة في تاريخ مصر فقط، بل في تاريخ العالم الإسلامي قاطبة، فقد استطاعت دولة المماليك في مصر بالانتصار في عين جالوت، حماية معالم العالم الإسلامي كله من التدمير، فقد تصدت لخطر المغول الذين قدموا من وسط آسيا بعد توحيد قبائلهم على يد جنكيز خان، وسعوا إلى السيطرة على العالم كله في جميع الاتجاهات وكوّنوا إمبراطورية ضخمة على أراض شاسعة في آسيا وأوروبا، وسقطت في أيديهم أراضي الدولة العباسية واحدة تلو الأخرى حتى أن عاصمة العباسيين بغداد قد سقطت في أيديهم، وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم نفسه ودمروا معالمها تماما، ثم زحفوا صوب الشام ومن ثم مصر وأعلنت الولايات والإمارات الإسلامية الواحدة تلو الأخرى الخضوع للمغول، ولم يقف أمامهم إلا مصر آخر الحصون القوية التي يمكن أن تحتمي بها أمة الإسلام .

كانت مصر تُعاني في هـــذه الفترة من الاضطرابات الداخلية والتصارع بين المماليك علـــى الحكم، وآل الحكم إلى طفل صغير هو المنصور علي بن أيبك وفي رواية نور الدين علي بن أيبك، وفي ظل هذه الأحداث العصيبة اتخذ ســـيف الدين قطز قراره الجرئ بعزل السلطان الطفل وتولي عرش مصر بنفسه لمحاولة التصدي للخطر المغولي القادم لا محالة .

عمل قطـــز على إعداد وتهيئة الجبهة قبـــل المواجهة المرتقبة، حيث كان قد تسلم تركة مثقلة بالمشاكل، ووضع شديد التأزم سياسيا واقتصاديا وعسكريا .

عمل قطـــز على توحيد الأمة مســـتخدما الأخـــلاق العالية والأهـــداف النبيلة، إلا أنه لم يتخل عن حزمه في الإدارة وعن أخذه بأسباب السيطرة على الأمور، وأصدر عفوا عن خصومه المماليك وعلى رأســـهم بيبرس، وذلك لتجميع الطاقات لحرب المغول بدلا من الدخول في معـــارك جانبية تزيد الضعف والفرقة .

ورغم ما كان يعانيه الشـــعب المصري في هذا الوقت من أزمات اقتصادية، إلا أن ذلك لم يؤثر في ثقافة الشـــعب المصري التي تعي أهمية الجهاد في ســـبيل الله والدفاع عن الدين والوطن، وبذلك كان لقطز ظهيرا شعبيا قويا ساعده على ما قام به من استعدادات، ووجد شعبا متقبلا لما قام به من إصلاحات، ولا نستطيع أن نغفل الدور العظيم الذي قام به الشيخ العز بن عبد السلام والذي كان

عونا مهما لقطز في بث معاني الجهاد والتضحية في الشعب بعد ذلك .

بالفعل وصلت رسل هولاكو المغولي إلى مصر، ويبدو أن المعركة ستكون أقرب مما يتمناه قطز الذي لم ينهي استعداداته بعد، وكانت الرسالة مليئة بالإرهاب والتهديد والوعيد .

عقد قطز مجلسا عسكريا للتباحث في كيفية الرد على رسالة المغول، وكان رأي الكثير من القادة هو الاستسلام للمغول وعدم حربهم، إلا أن قطز أصر على القتال وأخذ يلهب حماس قادة المماليك ويحثهم على الجهاد للدفاع عن الإسلام قائلا لهم « من للإسلام إن لم نكن نحن ؟» .

قرّر قطز قطع رءوس الرسل المغول وكانوا أربعة، وأمر بتعليق رءوسهم على باب زويلة أحد أبواب القاهرة، ومع عدم جواز قطع رأس الرسول شرعا، إلا أن هذا العمل أدى إلى طمأنة الشعب المصري بأن قائدهم لا يخاف المغول ورفع من معنويات المصريين، كما كان رسالة للمغول ليعلموا أنهم قادمين إلى أمة تختلف عن الأمم التي واجهها المغول من قبل .

كانت البلاد تعاني من أزمة اقتصادية طاحنة كما أسلفنا، في الوقت الذي يحتاج قطز إلى الأموال لاستكمال التجهيزات العسكرية، فاقترح أن تفرض ضرائب على الشعب لدعم الجيش، إلا أن الشيخ العز بن عبد السلام قال « إذا طرق العدو البلاد وجب

على العالم قتالهم، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم بشرط أن لا يبقى في بيت المال شئ، وأن تبيعوا ما لكم من الممتلكات والآلات ويقتصركل منكم على فرسه وسلاحه، وتتساوا في ذلك أنتم والعامة، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والألات الفاخرة فلا «

أنهى قطز الاستعدادات في ظل الإمكانيات المتاحة، وقرر أن ينقل المعركة إلى ميدان خصمه، بدلاً من الانتظار في مصر مما يجعل فرص سقوط القاهرة في يد المغول أقل، كما أن نقل المعركة إلى خارج مصر سيمكن قطز من تحقيق عنصر المفاجأة للعدو، وبالفعل بدأ الجيش يتجمع في الصالحية بمحافظة الشرقية الآن، ثم أعطى قطز إشارة التحرك في اتجاه فلسطين لمباغتة المغول .

قسّم قطز الجيش إلى قسمين، الأول فرقة كبيرة نسبيا بقيادة ركن الدين بيبرس، وجعل هذه الفرقة تتقدم عن بقية الجيش، بينما يتخفى بقية الجيش بقيادته في تحركاته حتى يظن جواسيس المغول أن فرقة المقدِّمة تلك هي كل الجيش، ثم يباغتهم ببقية الجيش ويحقق المفاجأة .

كانت أول مواجهة بين المسلمين والمغول في غزة، وقد استطاع بيبرس تحقيق نصر كاسح على حامية المغول المتواجدة في غزة، ثم استكمل الجيش طريقه بالاتجاه شمالا بمحازاة ساحل البحر المتوسط، ووصلت فلول المغول المهزومين في غزة إلى كتبغا قائد

المغول المتواجد في سهل البقاع بلبنان، فغضب كثيرا وقرر الزحف لمواجهة المسلمين .

وصل قطز إلى منطقة عين جالوت، وقرر أن يستدرج المغول إلى هذه المنطقة المناسبة جدا لقتالهم، فهي عبارة عن سهل واسع منبسط تحيط به التلال المتوسطة من كل الجهات إلا الشمال، كما تعلو هذه التلال الأشجار والأحراش، مما يوفر مخبأ مناسبا للجيش ويسهل عمل الكمائن للعدو .

بالفعل وضع قطز مقدمة الجيش بقيادة بيبرس على الناحية الشمالية لإغراء جيش المغول بالنزول إليها ظنا منهم أن هذه الفرقة هي كل الجيش، واختفى قطز مع بقية الجيش في الأحراش، واجتمع لقطز الكثير من المتطوعين من أهل فلسطين .

وصلت جيوش المغول بقيادة كتبغا إلى عين جالوت، وانخدع بقلة عدد فرقة المقدمة، فقرر أن يدخل المعركة بكامل جيشه ليحسمها سريعا، وتقابل الجيشان وعلت صيحات التكبير وسالت الدماء، وثبت بيبرس ورجاله في وجه المغول حتى جاءته الإشارة من قطز ويتظاهر بالانسحاب إلى داخل السهل حتى يتبعه المغول، وتحمس كتبغا لملاحقة فرقة بيبرس إلى داخل السهل .

ما لبث كتبغا أن دخل بجيش المغول إلى داخل السهل، إلا وخرج قطز برجاله من بين الأحراش ودخلوا من المدخل الشمالي للسهل، وأحاطوا بالمغول، إلا أن ميمنة جيش المغول كانت في غاية

القوة، وكادت أن تهزم ميسرة المسلمين، فنزل قطز بنفسه إلى قلب المعركة وألقى خوذته على الأرض وصاح بأعلى صوته «واإسلاماه»، تلـــك الكلمة التي كان لها بالغ الأثـــر في إلهاب حماس الجنود، وهونت عليهم قوة وكثرة المغول حتى ســـقط كتبغا قائد جيش المغولا قتيلا .

بـــدأت قوات المغول في الهرب، وقطـــز يتتبعهم حتى وصلوا إلى بيســـان وبها وقع بالمغول مقتلة عظيمة وانهارت تماما أســـطورة جيشـــهم الذي لا يُقهر .